

ثقافة الشفافية وأيديولوجيا التواصل في المجتمعات الرأسمالية "هيجان النيولبرالية وسياسة البانوبتيكون"

The Culture of Transparency and the Ideology of Communication in Capitalist Societies "The Frenzy of Neoliberalism and the Politics of the Panopticon "

(1) د. جويني نورالدين d.jouini noureddine

(1) جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة Université Al-djilali Bounnama khemiss melliana

المؤلف المرسل: د/ جويني نورالدين d. jouini noureddine البريد المهني: n.jouini@univ-dbk.m.dz

تاريخ الاستلام: 2025/07/ 07 تاريخ القبول: 2026/02/ 01 تاريخ النشر: 2026 /06/10

الملخص: تسعى هذه المقاربة إلى قراءة بعض الرؤى والأفكار التي ميزت عالم بيونغ تشول هان الفلسفي هذا الأخير الذي عُرف بمدى قدرته على استنطاق حالة الطوارئ (أمراض العصر) التي أصابت المجتمعات بعد ظهور ما يسمى بالعمولة خصوصا في شقها مابعد الحداثي، فقد سيطرت هذه الأخيرة على مختلف أشكال التواصل أكثر من أي وقت مضى، حتى غدى الإنسان ضمن عالمها/نظامها مجرد عنصر وظيفي بل كائنا نمطيا خاضعا لنوع من المطابقة القهرية، إنها رؤية تضعنا أمام رهننا الذي أصبحت تتحكم فيه وسائل التواصل الاجتماعي خالقة بذلك آفات جديدة (الاكتئاب، الاحتراق النفسي...) شكلت مجتمعا منهكا.

الكلمات المفتاحية: مجتمع الإنجاز، الشفافية، النيولبرالية، العنف الإيجابي، الاحتراق النفسي

Abstract: This approach seeks to examine some of the key insights and ideas that characterize the philosophical universe of Byung-Chul Han—a thinker renowned for his ability to diagnose the state of emergency (the pathologies of our time) that has afflicted societies in the wake of so-called globalization, particularly in its postmodern iteration. Late capitalism has come to dominate modes of communication more than ever before, reducing individuals within its system to

" هيجان النيوليبرالية وسياسة البانوبيكون "

mere functional components—standardized beings subjected to a kind of coercive conformity. Han's critique confronts us with a present reality in which social media exercises unprecedented control, generating new afflictions (depression, burnout, etc.) that have produced an exhausted society.

Keywords: The Achievement Society; The Tyranny of Transparency; The Neoliberalism; The Violence of Positivity; Burnout as Systemic Collapse.

1. مقدمة:

إن هاجس الكتابة مرتبط دائما بما نحن مقبلون على قراءته، في بعض الأحيان نقرأ من أجل أن نعرف وفي أحيان أخرى نقرأ كما يقول بارت من أجل المتعة وفي بعضها الآخر نقرأ من أجل أن نكتب، في حالتي هذه وأنا مقبل على الخوض في موضوع الشفافية لم أستطيع بالضبط أين أضع نفسي ضمن هذه الأسئلة فالكثير من الأفكار تراودني والكثير من الأسئلة تشغل بالي، فهذا المصطلح له وقع كبير في ثقافتنا خصوصا في الآونة الأخيرة التي شهدنا فيها تحولات جذرية فرضها الحراك الثقافي، ولا يتعلق الأمر ببلدنا فقط وإنما هو متعلق أيضا بما يمكن أن نطلق عليه الربيع العربي وبالتالي فهذا المفهوم —أي الشفافية— في أذهاننا خلفياته مرتبطة دائما بالدرجة الأولى بتلك الوعود التي يقدمها السياسيون في حملاتهم الانتخابية، أي أنه بمعنى آخر مفهوم سياسي والمقصود به هنا هو النزاهة، ولكن هل نحن هنا في هذا الصدد من أجل مناقشة المفاهيم المرتبطة بمصطلح الشفافية وعلاقتها بالنزاهة؟

يعد بيونغ تشول هان واحدا من بين أبرز الذين شغلت آراءهم الفكرية فضاء مهما ضمن نطاق الفلسفة المعاصرة اليوم، فهو سليل مدرسة فرانكفورت التي عرفت بتشخيصها لمختلف الظواهر المجتمعية، وقد نجح تشول هان في مختلف كتبه بالإحاطة بما يسمى في وقتنا الراهن بأمراض العصر (الاكتئاب، الاحتراق النفسي...) التي تسببت فيها التكنولوجيا والعولمة متبينا قراءة فاحصة تركز على وصف الحياة الراهنة التي سرقتها منا الرقمنة وأصبحت تتحكم في خوارزمياتها. كتب تشول هان العديد من الكتب ثم ترجمة حوالي خمسة كتب منها إلى لغتنا، وقد تولت دار معنى نشر هذه الكتب التي تعد إضافة مهمة

لثقافتنا، فنحن في زمننا الراهن بحاجة إلى مثل هذا النوع من المعرفة كي نستطيع التفكير خارج براديجم الرقمنة، "لقد حققت الرقمنة الحلم القديم بتوحيد لغات العالم في لغة واحدة قادرة على إزالة الحواجز والتقريب بين الشعوب، لكنها في الوقت ذاته دمّرت الفردية والسمات الشخصية التي تميز كل فرد عن الآخر".⁽¹⁾

تسعى هذه المداخلة عن طريق عنوانها إلى تبيان حالة الطوارئ التي أصابت المجتمعات بعد ظهور مايسمى بالعملة خصوصا في شقّها مابعد الحدائي أو مايسمى بالحادثة المتأخرة فقد سيطرت هذه الأخيرة على مختلف أشكال التواصل أكثر من أي وقت مضى، حتى غدى الإنسان ضمن عالمها/نظامها مجرد عنصر وظيفي بل كائنا نمطيا خاضعا لنوع من المطابقة القهرية بينه وبين الآخرين كما يوضح ذلك تشول هان في كتابه مجتمع الشفافية، وتجدد الإشارة أن المقصود هنا بالشفافية لا يرتبط بمفهوم النزاهة الذي عادة ما يكون مجاورا لها بل هي كما يورد ذلك تشول هان في كتابه نظام نيوليبرالي قهري يحتاج جميع العمليات الاجتماعية والتواصلية وقد أصبح مع مرور الوقت مترسقا في وقتنا الراهن فالشفافية تعد بدورها حسب مفهوم هذا المفكر أيديولوجيا مثل "الأيديولوجيا كلها تشترك معها في صفاتها الأساسية كالشمولية والخداع والزيّف، الشفافية، وهي من حيث كونها أيديولوجيا تشكل خطورة، حيث إذا تمّ تعميمها ستفضي إلى الإرهاب"⁽²⁾ ومن هنا انطلاقا من هذا المنظور تتحول دلالة مفهوم الشفافية من رؤية تتميز بكونها تستند وتؤسس لمعيار الثقة إلى بانوبتيكون دوره السيطرة/الهيمنة على الإنسان وسجنه في الإيجابيات المفرطة، إنه كما يؤكد تشول هان مجتمع سيطرة وليس مجتمع ثقة، ومن أجل توضيح هذا المفهوم وتبيان الطريقة التي يشتغل بها يستحدث تشول هان مجموعة من المفاهيم ويبين ارتباطها بهذا النظام فمجتمع الشفافية كما يرى هو مجتمع إيجابي ولاشك أن المقصود هنا بالإيجابية لا يرتبط أيضا بمفهوم السلبية بل يرتبط في مضامينه بمفهوم السلب عند هيغل ومفهوم التفكير الإيجابي والتفكير السلبي عند هاربرت ماركيز الذي تحدث عنه في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد فالمجتمع الإيجابي كما يوضح تشول هان "يتجنب السلبية في

" هيجان النيوليبرالية وسياسة البانوبتيكون "

جميع أشكالها، لأن السلبية تجعل التواصل في مأزق، حيث يتم قياس قيمة التواصل فحسب من حيث كمية المعلومات وسرعة التبادل، ولهذا يعمل على إقصاء السلبية بأكملها من داخل نظامه ليفسح الطريق لهيجان النظام الإيجابي وجموحه"⁽³⁾ فالحب مثلا في سياق الإيجابية تتم تسويته خارجا وذلك من أجل تنظيم المشاعر دون عواقب وتعقيد ويتجلى هذا في عبارات مثل لا تفعل كذا في الحب تجنب كذا في الحب وغيرها من العبارات التي تموضع الحب بوصفه شكلا من أشكال الراحة والأمر ينطبق كذلك على الفايسبوك ومختلف وسائل التواصل الاجتماعي ففي فترة من الزمن بقي الفايسبوك مثلا يفرض باستمرار إتاحة إمكانية التعبير عن لم يعجبني.

يستند هذا المجتمع في سياسته كما يوضح ذلك تشول هان على البانوبتيكون وهو في الأصل مفهوم يعني المراقبة وقد ارتبط بالفيلسوف بنتام وكان يعني تصميم يتم من خلاله مراقبة المسجونين دون معرفة إذا كانوا مراقبين أم لا، ولا شك أن فوكو بدوره استفاد كثيرا في كتابه المراقبة والعقاب من هذا المفهوم فالذات عند فوكو تصل درجة أساليب السيطرة عليها لمسار تصبح تراقب نفسها بنفسها، ولذلك نجد مجتمع الشفافية لا يعتمد في أساليبه على الإيجابية فقط بل يتعدى ذلك كما يبين هان على العرض والتسارع والمعلوماتية والالتحجب والتحكم وكلها نقاط سنحاول معالجتها في المداخلة وسنبين كيف تشتغل الشفافية داخل كل هذه المفاهيم وكيف تجعل الشفافية هذه المفاهيم تنصهر لتشكّل مجتمع تسيطر عليه مختلف وسائله التواصلية والاجتماعية.

2. العنف الإيجابي في مجتمع الشفافية:

يجدر بنا قبل الحديث عن العنف في هذا المجتمع التأريخ لهذا المفهوم ولكن يجب أن يكون تأريخا لا ينطلق من البدايات الأولى التي كان فيها العنف مباشرا أو بلغة التوسير قمعيا، بل سنتحدث عن السمة الأساسية التي أصبحت اليوم تغلف العنف مابعد الحداثي، هذا الأخير الذي أصبح علامة تميز هذا العصر بامتياز أو كما وصفه سلافوي جيچيك في كتابه العنف: تأملات في وجوه الستة "ثوب الطاغية الدامي"⁽⁴⁾، إنه سمة أصبحت تميز جميع الأنظمة الشمولية فهو كما ترى حنة أرندت في كتابها في العنف

"لا يكتفي الآن بأن يهدد بعض الطبقات الاجتماعية، بل يهدد أيضا وجود أمم بأسرها... بل والنوع الإنساني كله"⁽⁵⁾ ولا شك أن هذه العبارة تعكس ما يحدث حاليا فيما هو متعلق بالإبادة العرقية/الجماعية التي يعيشها مواطنو وقطاع غزة، فالعنف في هذه الحرب أصبح يهدد وجود الفلسطينيين فقد أصبح معرضا للزوال بفعل حدة وبشاعة العدوان المقتترف ضدهم، ولكن ومع ذلك وعلى الرغم من حدة هذا العنف نلاحظ أن الكثير من الامبراطوريات سواء السابقة أو الحالية تدعم بشكل رهيب هذه السلوكيات بل تحاول أن تؤسس لبراديعمات جديدة مغلفة بأفكار حقوقية(منظمة حقوق الانسان... وغيرها) فمن "يتأمل العالم اليوم يلاحظ بأن الكثير من البلدان دمرت من قبل الامبراطوريات الامبريالية بسبب حماية الأقلية، ولكن لم يكن الدفاع بدافع إنساني كما تحاول وسائل الإعلام العالمية التأكيد عليه، بل كان بدوافع توسعية"⁽⁶⁾ ألا يعكس هذا ما يود فعله اليوم من يدعي أنه ملك العالم الرئيس الأمريكي ترامب.

إن ما نستنتجه من التحليلات السابقة أن العنف في مضمونه كان يحمل فيما مضى، يعني قبل ظهور تحليلات ورؤى تشول هان دائما معنى يرتبط بالسلبية وفي بعض الأحيان يرتبط بالمقاومة فقد اعتبره فرانز فانون في كتابه معذبو الأرض رؤية يجب أن تجسدها المجتمعات المستعمرة كي تتحرر من قبضة الاستعمار هذا الأخير الذي عدّه فانون فعل عنيف بامتياز وبالتالي يجب أن نتخلص منه عن طريق الأداة نفسها التي تغلغل بها في هذه المجتمعات وهو العنف.

يختلف العنف ضمن مجتمع الشفافية كما يبين ذلك تشول هان في حيثياته عن العنف بمفهوم السلبي الذي ميز المجتمعات القديمة، فللعنف كما يرى هذا الأخير طاقة إيجابية هي التي تضمن استمراره في الأخير إنه كما يقول "ليس مجرد زيادة في السلبية يمكن أن يكون أيضا فائضا في الإيجابية وتراكما لها (...). ربما يكون العنف الإيجابي أكثر كارثية من العنف السلبي لأنه غير مرئي وغير واضح"⁽⁷⁾ لقد فقد العنف حضوره ولم يعد وجوده ظاهرا للعيان كما كان في السابق فالإعدام مثلا كان يتم على مرء الجميع ولكن اليوم لم نعد نسمع به ما يتم تداوله فقط هو أن فلان تم إعدامه لقد أصبح الإعدام متحجبا، مثله

" هيجان النيوليبرالية وسياسة البانوبتيكون "

مثل بقية الأفعال العنيفة التي يمارسها اليوم الانسان ضد نفسه، "إن مسرح العنف الدامي الذي كان مميزا لمجتمع السيادة ينتهي به الحال إلى غرفة غاز دموية تسحب من المجال العام إلى المجال الخاص وبدلا من استعراض عظمتها أصبح العنف محتفيا في عار" (8) ولكن في مقابل هذه الرؤية وهذا كرد على رؤية تشول هان نجد إعدام شخصيات كبرى خصوصا العربية أو الايرانية التي يتم شيطنتها من قبل الغرب تتم علنا مثل ما حدث مع صدام حسين الذي عُدّ أمم جميع الكاميرات التي كانت تستمتع بتصوير هذا الحدث العنيف أو بلغة أخرى هذا الاغتصاب الشنيع الذي مارسه أمريكا في يوم يفرح فيه كل مسلم (عيد الأضحى)، نعم لقد قالتها أمريكا بكل وضوح أنتم اليوم تضحون بالأغنام ونحن اليوم نضحى بزعيمكم، فدعونا نتشارك هذه الفرحة معكم، "هنا بالذات يكمن عنف الرأسمالية المنهجي الأساس وهو عنف أغرب لدرجة لا تقبل القياس، من أي عنف سوسيو أيديولوجي مباشر ينتمي إلى ما قبل الرأسمالية، إنه عنف ما عاد قابلا أن يعزى إلى أفراد مشخصين وإلى نياتهم الشريرة بل هو عنف موضوعي خالص ومنهجي ومجهول". (9)

تطرح رؤية تشول هان في ما يخص موضوع العنف تحذيرا مهما يخفر في عمق الثقافة الغربية ويعطي رؤية شبيهة بالرؤية الإدواردية المتعلقة بموضوع الاستشراق، فقد اعتبر تشول هان أن العنف قد بدأ منذ العصر اليوناني فالعنف عند اليونانيين مبرر ضمن غطاء قانون الطبيعة إنه مصير وضرورة تُظهر بها النفس البشرية أو بلغة أخرى إنه الاستمتاع بالعنف "لدينا هنا مجتمع يقبل العنف الجسدي وسيلة لتحقيق غاية لقد كان مجتمعا من الدماء متميزا عن المجتمع الحديث من الناحية النفسية، من هنا كانت النزاعات لا تحل عادة إلا عن طريق استخدام العنف" (10) وبما أن الفكر الأوروبي كما يرى دريدا يأخذ كل تزيّقه من صيدلية أفلاطون اليونانية أصبح دائما يرى أن العنف هو السبيل الوحيد لصناعة الامبراطوريات ولكن في هذه المرحلة اختلفت الاستراتيجية خصوصا في فترة مابعد الحداثة وتوهج الرأسمالية فقد "تحول العنف من المرئي إلى اللامرئي ومن العسكري الهجومي إلى الوسائطي ومن المجاهدة الصريحة إلى الفيروسية" ولاشك أن الحرب الفيروسية التي بدأت من الصين في قضية فيروس كورونا لدليل قاطع على صحة هذه الرؤية، فقد

حول هذا الفيروس الصراع من صراع خارجي/وجودي إلى صراع داخلي/نفسي لا يرى ولا ينتظر إلا الموت، وبما أن الموت كان منذ القديم هو الخطر الذي دائماً ما يهاب منه الانسان لجأ هذا الأخير حسب تشول هان إلى العنف من أجل مواجهته، فهو في اعتقاده -أي الموت- عنف مسلط عليه " يحمي المرء نفسه من العنف عبر ممارسة العنف، يقتل حتى لا يُقتل قتل يحمي من الموت (...). كان العنف بمثابة تقنية ثانوية للبقاء على قيد الحياة في مواجهة خطر الموت". ومن جهة أخرى وعلى المستوى الاقتصادي يتحول الموت حسب تشول هان إلى أكبر عدو للرأسمالية، فالموت والرأسمالية وجهان لا يمكن أن يلتقيا، إنه عدو رمزي يتغلغل في عمق الأنظمة وماهيتها ويجعل من البداية والنهاية حد واحد، فموت الرأسمالية مرهون بميلاد نظام قهري آخر، إن "رأسمال الذي لا نهاية له يخلق وهم الزمن الذي لا نهاية له، تراكم رأس المال يعمل ضد الموت وفي مجابهة مع فقدان المطلق للزمن(...). التغلب على الموت هو جوهر الخيال الخيميائي كما أنه يغذي الاقتصاد الرأسمالي بهيستريا النمو والتراكم"، ما نستنتجه من هذا الكلام هو أن عدم الايمان بالموت والخوف المطلق من حدوثه يجعل المجتمع الرأسمالي مجتمعاً هستيرياً هدفه في الحياة فقط هو البقاء والخلود، لكن هذه الهستيريا لا يمكن لها أن تركز إلى البقاء/الحياة، فالتبيعة لا تؤمن فقط بالحياة، لأن الموت أيضاً جزء ضروري منها، إن الصراع مع ثوابت الطبيعة هو الذي حوّل المجتمع الغربي إلى "مجتمع الموتى الأحياء، لا يستطيع العيش ولا الموت، وبالتالي كان لابد من منح الموت مساحة أكبر داخل الحياة لمنع الحياة من التحجر داخل اللاموت".⁽¹¹⁾

3. مجتمع الإنجاز:

إن الحديث عن هذا النوع من المجتمعات في فكر تشول هان هو ضرب في عمق الفلسفة الفوكوية والتنشوية، إنه نوع من الفهم الجديد المتجاوز للأفكار التي سيطرت لردح من الزمن على طرق التفكير وكيفيات تشكل الذوات الفردية في المجتمعات التأديبية، فالعالم الذي كان يتحكم فيه النظام الليبرالي يقوم في أساسه على الاحتفاء "بالتفكيكية الديريداوية والحفريات الفوكوية والترحالية الدولوزية(...). وكل هذا

" هيجان النيوليبرالية وسياسة البانوبيكون "

التركيز (الذي لا يخلو بدوره من الأدلة المفصولة) خلق وعيا معرفيا زائفا فأسس لاعتقاد مفاده أن العالم كله أصبح يعيش الشرط مابعد الحداثي " إنها شرطية تفقد قيمتها في عصرنا الحالي (النيوليبرالي)، فمجتمعات اليوم كما يرى تشول هان لم تعد تتوافق مع المسلمات والرؤى التي كان يحتفي بها فوكو ونيته وحتي ديريدا، وفي هذا الصدد يقول "لم يعد مجتمع القرن الواحد والعشرين مجتمعا تأديبيا بل هو بالأحرى مجتمع للإنجاز، وبالمثل لم يعد أفراد ذواتا قابلة للتشكل، بل ذواتا للإنجاز، فهم يديرون أنفسهم بأنفسهم، لقد باتت جدران المؤسسات التأديبية التي تقوم بالفصل بين الشخص الطبيعي وغير الطبيعي بالية". (12)

إن مجتمع الإنجاز هو الرهان الجديد الذي يمكن عن طريقه تفسير الأمراض العصرية التي أصبحت آفة هذا العصر، فالإكتئاب ومتلازمة الاحتراق النفسي والعنف الذاتي والإيجابية المفرطة، والارهاق والتعب، كلها آفات سيقف التفسير الفوكوي والنيتشوي وحتي الفرويدي عاجزا أمامها، إننا بحاجة إلى تفسيرات مابعد فرويدية وما بعد فوكوية فمجتمع الانجاز يحتفي بكل ما هو إيجابي بل لا مكان للسليبي فيه كونه يقوم على براديغم "أجل يمكنك فعل ذلك" عكس المجتمع التأديبي الذي تحكمه أدوات النفي مثل "لا تفعل" "لا يمكنك القيام بذلك" وهي سلبية لا تستطيع سوى "إنتاج المجانين والمجرمين في المقابل فإن مجتمع الانجاز ينتج عنه مرضى الإكتئاب وأولئك الخاسرون" (13) ولتوضيح هذا الأمر يمكننا أن نضرب مثلا بما تحدثه مواقع التواصل اليوم وخصوصا الفايسبوك، فالفايسبوك يعد مساحة هائلة للحرية الفائضة، كما أنه يمثل مكانا تحس فيه الذات بأنها تدير نفسها بنفسها فالآخر هنا غائب تماما وحضوره يكون مرهونا فقط بما تريده وتفرضه اختيارات الذات (ajouter ami)، ولا شك أن استمتاع الذات بهذه الحرية ناتج بالدرجة الأولى عن الإيجابية التي يمنحها هذا الفضاء، فقد رفض الفايسبوك "باستمرار إتاحة إمكانية التعبير عن لم يعجبني يتجنب المجتمع الإيجابي السلبية في جميع أشكالها، لأن السلبية تجعل التواصل في مأزق، حيث يتم قياس قيمة التواصل فحسب من حيث كمية المعلومات وسرعة التبادل، كما يضاعف مقدار التواصل من القيمة الاقتصادية لعملية التواصل" ولا يقتصر الأمر فقط على الفايسبوك بل يشمل ذلك مختلف مواقع وبرامج التواصل التي تتيحها التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، ف chatgpt مثلا لديه قدرة كبيرة على ضخ

كم هائل من الايجابية فلا مكان في هذا الموقع للسلبية إنه فضاء مفتوح مستعد لجعل جميع الأفراد أحرارا في مختلف الطبقات الاجتماعية.

لكن هل الحرية التي يمنحها مجتمع الانجاز هي حرية تجعل من الأفراد حقيقة سعداء؟ أو بصيغة أخرى هل التحرر والافلات من النظم/المؤسسات التي شكلت ذواتنا يجعلنا نتجنب القمع والاضطهاد الذي مارسه علينا هذه المؤسسات الأيديولوجية؟

يرى تشول هان أن الحرية في مجتمع الانجاز أصبحت مرادفة تماما للقهر، بل مطابقة له، وهو قهر يختلف في حيثياته عن القهر الذي كانت تمارسه المجتمعات التأديبية في الطريقة والكيفية التي يتم بها إنتاج هذا الأخير، فالقهر في المجتمعات التأديبية كان يتم من الخارج/المجتمع/المؤسسات عكس مجتمع الانجاز الذي يتم فيه إنتاج القهر من الداخل/الذات "تقف ذات الانجاز بعيدا عن التمثيلات الخارجية للهيمنة التي تجربها على العمل وتسعى لاستغلالها، فهي لا تخضع لأحد إن لم تكن لنفسها، ومع ذلك فإن غياب البنية الخارجية لا يلغي بنية القهر بقدر ما يفضي إلى تزامن القهر والحرية، تضع ذات الانجاز نفسها تحت قهر ذاتها من أجل مضاعفة الأداء" ومن هنا يتحول الاستغلال الذي كان في المجتمع التأديبي خارجيا إلى استغلال داخلي فالذات أصبحت تستغل نفسها بنفسها حتى تصل لدرجة الانهاك التي ينجم عنها في الأخير مختلف الأمراض التي وصفها تشول هان بأمراض العصر(الاكتئاب، الانتحار....) وفي هذه الحالة "تعمل الذات على تطوير ميول عدوانية تلقائية والتي غالبا ما تتضاعف لتفضي في النهاية إلى العنف الذي يتخذ من الانتحار مسلكا له"، إننا أمام حتمية تجعلنا نؤمن بأن الغرب هذه الذات الترجسية ستصل في الأخير إلى أفول يجعل نهايته ضرورة طوبولوجية.

4. الهيمنة والتسلط في مجتمع الشفافية:

يعد الفيلسوف الايطالي أنطونيو غرامشي واحد من بين أبرز الفلاسفة مابعد الماركسيين الذين كان لهم تأثير كبير في كثير من الدراسات المعاصرة، فقد طرح هذا الأخير مصطلحا شكل بؤرة معرفية لكثير من

" هيجان النيوليبرالية وسياسة البانوبتيكون "

الدراسات على رأسها النظريات مابعد البنيوية والدراسات الثقافية، وهذا المصطلح هو ما يعرف الآن في الأوساط الثقافية بالهيمنة ويقصد به غرامشي أن السيطرة لا تتم بسبب قوة المسيطر فحسب، ولكنها أيضا تتمكن منا بسبب قدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلم بوجهاتها. إنه نوع من الخضوع والرضوخ المبني على القبول، فالهيمنة في دلالتها العامة تشيع اليوم في الخطاب السياسي والثقافي المتداول ويشير إلى التسلط أو الرقابة الصارمة التي يفرضها فرد أو شعب أو مؤسسة أو غير ذلك على ما عداه لتحقيق مصلحته الخاصة. يبدو أن قضية الهيمنة في مجتمع الشفافية تختلف جذريا عن هذه الرؤية، لأن مسألة السيطرة هنا تتحول من الفضاء الخارجي (الاستعمار، الرجل، الأسرة...) إلى الذات، فنحن هنا لسنا أمام مجتمع تأديبي يؤسس لذوات الطاعة، "إن ذات الإنجاز تقف متحررة من أي نموذج خارجي للهيمنة يجبرها على العمل أو يعمل على استغلالها بشكل مباشر، إنها سيدة نفسها وأميرتها، وبالتالي فإنها لا تخضع لأحد بل إنما تخضع لنفسها فقط"، ويبدو أن هذه الرؤية هي ما يريد الوصول إليه غرامشي بالضبط لأن هدفه في الأول والأخير تحرير الذات من تعسفات السلطة وعنفها، هذا يعني أنه نوع من تقرير المصير الذي ستعكس نتائجه على المجتمع بأكمله، ولكن يبدو أيضا أن مسألة الحرية هنا كما سي طرحها تشول هان ستتحول إلى نقمة تفجر الذات وتقهرها، وهو ما يجعل رؤية غرامشي بصيغة أخرى خفية لا يمكن لها أن تتحقق لأن الضحية والجلاد يجتمعان في ذات واحد، فالذات هي الضحية وهي من تجلد ذاتها في الوقت نفسه، "هذا الوضع يبدو أكثر فاعلية من استغلال الآخر لأن الشعور بالحرية يكون حاضرا فيه فالمستغل هو المستغل في الوقت ذاته لم يعد بالإمكان تمييز الجاني عن الضحية (...). إن الانحرافات النفسية لمجتمع الإنجاز ماهي إلا مظاهر مرضية لمثل هذه الحرية المتناقضة". (14)

إن هذه الرؤية التي قدمها تشول هان تجعل من مفهوم الهيمنة الذي أتى به غرامشي مفهوما رقيقا، فلا يمكن أن نقول أن الرؤية الغرامشية لم تعد تؤتي ثمرها، فمسألة تحديث المفاهيم وتطويرها بما يلائم روح العصر هو ما يسعى إليه دائما تشول هان ضمن مختلف كتبه، ففي مختلف الرؤى التي يطرحها نجده دائما ينطلق من مقولات معينة لفلاسفة أمثال حنة أرندت أو نيتشه أو فوكو وحتى ماركس وفرويد ويقدم رؤية

جدلية نقيضة، ومما لفت انتباهنا تلك القراءة التي قدمها لعلم النفس الفرويدي وكيف أثبت أن هذا العلم لم يعد يمتلك تلك القيمة التي كان عليها ضمن المجتمع التأديبي أو العقابي وفي هذا الصدد يقول: "لا يمكن إجراء التحليل النفسي الفرويدي إلا في المجتمعات القمعية التي أسست تنظيمها على سلبية المحظورات والأوامر، فالمجتمع المعاصر هو مجتمع الانجاز إنه يتخلص على نحو متزايد من سلبية المحظورات والأوامر ويقدم نفسه كمجتمع للحرية، لذا فإن الفعل الشرطي الذي يحدد مجتمع الانجاز ليس هو الإلزام الفرويدي"، فالإلزام الفرويدي يتحقق في المجتمع الذي يسير وفق رؤية بنتام، أو ما سميناها سابقا بالبانوبتيكون حيث ترسخ فيه بنية الهيمنة والسلطة وفق منظور تصل فيه الذات إلى مراقبة نفسها وهو نوع من التوهم تخلقه سلطة الإخضاع في نفسية السجين في الحين نجد أن مجتمع الشفافية يسعى بالدرجة الأولى إلى التحرر من السلطة لأنه مجتمع لا يؤمن ولا يفكر بالجماعة فالفرادانية هي سمتة البارزة، ولكن يبقى دائما دياكتيك الحرية هذا الهاجس الذي دائما ما يسجن الذات في براديجمات تحررية يشتغل وفق منظور سيودي في النهاية إلى الوقوع في فخ الهيمنة والتسلط، وربما تصبح هذه الهيمنة أشد خطرا من الهيمنة والتسلط التي كانت تمارسها المؤسسات العقابية أو الأيديولوجية، "لقد وقع العالم بأسره اليوم في قبضة نظام المراقبة، وقد غدا هذا النظام شاملا حيث لم يعد ثمة جدار يحيط به من الخارج، إذ لم بعد هناك خارج (...) يستسلم الناس طواعية لنظرة المراقبة يتعاونون عن قصد داخل هذا النظام الرقمي للمراقبة عبر تعرية أنفسهم وعرضها ليتضح في النهاية أن الحرية هي شكل من أشكال السيطرة".⁽¹⁵⁾

يتقاطع هذا المنظور كثيرا مع الرؤية التي قدمتها جوديث بتلر في كتابها الحياة النفسية للسلطة - نظريات في الاخضاع- حيث تناقش هذه الأخيرة مسألة في غاية الأهمية تبين من خلالها النقص الذي تحلل رؤية ميشال فوكو وألتوسير وهيغل ونيتش في تحليلهم للسلطة، فالقضية لم تعد برانية/خارجية بقدر ما أصبحت جوانية/نفسية، وفي هذا الصدد تقول "تتخذ السلطة التي تظهر في البداية بوصفها خارجية على الذات ومفروضة عليها ومقحمة إياها في الاخضاع شكلا نفسيا يكون الهوية الذاتية للذات" إنه مازق لا

" هيجان النيوليبرالية وسياسة البانوبيكون "

تتقاطع فيه مبادئ الحرية مع القهر أو الخضوع بل تتحد هذه المبادئ لتشكّل هذه الذات المقهورة والمكتئبة التي تعاني من مختلف الأمراض النفسية، وهذا الأمر ربما يجعلنا نقول أنه حان الوقت لتتصالح الذات مع ذاتها وليس مع الآخر، فمجال الآخريّة مغيب تماما لأن الفردانية بلغة باومان هي من أصبحت تشكّل لغة العصر وتصنع المجتمعات، إن البيوت لم يعد لها جدران لقد بات كل شيء شفافا "تخترق رياح الاتصالات الرقمية كل شيء لتجعله مرئيا، تهبّ عليه تلك الرياح من مختلف اتجاهات مجتمع الشفافية"، إنها رؤية لا تخدم الفرد والمجتمع بقدر ما تخدم النظام الرأسمالي، أي أن مجتمع الشفافية لا يؤمن بحرية الفرد ولا يهتمه ذلك بل ما يهتمه فقط هو الانتاج والانتاجية ألم يعد عصرنا هو عصر الروبوت بامتياز، لقد ماتت المشاعر وحلت المادة محل القلب "الشفافية الرقمية ليست تصويرا للقلب، لكنها بورنوغرافيا".

إن المنطق البورنوغرافي هو من يؤسس له هذا المجتمع، فالبورنوغرافيا هي فضاء للمتعة هو مكان لا وجود فيه للحدود ولا يؤمن بالقوانين، ينزع كل ما هو متحجب سموه الأخلاقي هو الدنس لأن التقديس متعال عن العري الذي يسعى له هذا المجتمع وبالتالي فالرأسمالية ستجد في هذا المجتمع فرصة لا يمكن الاستغناء عنها بل يجب دعمها بكل الوسائل المتاحة لأنه سيعود عليها برأسمال وفير، ألم تتكلم لغة الأرقام ووصلت إلى أن نسبة مشاهدة الأفلام الاباحية قد حققت رقما مربعا تخطى كل المواقع وفاق كل الحدود، إنها هيمنة تجعل الفرد يعتقد أن هذا المجتمع البورنوغرافي قد حرره من كل قيود المراقبة التي حرّمته من لذة المتعة والمشاهدة، متعة تخلو من أي رؤية تأويلية عميقة، لن يعود ضمن هذا المجتمع وجود فرق بين الانسان والحيوان بل ربما سيتحول الحيوان إلى ضحية لهمجية الانسان، لقد سيطرة الغريزة على فكره وتم تبرير الطغيان المستبد ببراديعم الحرية وهذا تحت شعارات مضللة، نحن نريد أن نجعلكم سعداء نريد أن تكونوا أحرارا، ويبدو أن هناك من يريد أن يزج حريبتكم ويجب علينا أن نبيدهم، إنها -أي الشفافية- كما بيّنا سابقا أيديولوجيا "تشكّل خطورة حيث إذا تم تعميمها ستؤدي إلى الإرهاب". (16)

ما نشاهده اليوم في غزة هو أكبر نموذج يمكن عن طريقه تبين أن هذا التأويل يتماشى بالفعل مع سياسة النيوليبرالية التي تبناها الغرب، فالغرب اليوم لم يعد يؤمن بالآخية إنه يؤمن فقط بمقولة إما الرضوخ وقبول الهيمنة أو العنف واللاوجود، إن تاريخ الغرب مبني كله على الدماء والعنف "لقد تأسس على العنف العرقي وهو يستمر في إلحاقه بالأقليات بطرائق ممنهجة وعليه يفهم العنف القائم على العرق بأنه يعمل في خدمة دفاع الدولة عن نفسها" ألم تنجح إسرائيل في تبرير أن ما تقوم به من مجازر في غزة يدخل ضمن استراتيجية محاربة حماس الذي أصبح على حد زعمهم يهدد حريتهم ووجودهم في أرض اغتصبوها وعبثوا بكل مقوماتها الهوياتية، إنه وهم إمبراطوري يجعل هذا المستعمر دائما يعيش في براديجم يقوم على شعار "هناك من يتربص بنا ويريد أن يصفينا عرقيا وبالتالي يجب علينا تصفيتهم"، لقد كان الفيلسوف السلوفيني سلافوي جيجك على حق عندما قال أن حرب غزة هي وجه من أوجه نهاية الغرب لأنه لم يصل إلى انخراط أخلاقي أكثر مما هو عليه اليوم، ولذا فإن كل ما هو مرتبط بمجتمع الشفافية يخدم كل هذه الرؤى لأن هذا المجتمع كما يقول تشول هان يشكل "نظاما قهريا يحتاج جميع العمليات الاجتماعية ويخضعها لتغيير عميق(...). برهن وجود الشفافية داخل النظام بالقضاء على فكرة الآخية والتمايز هذا القهر المنهجي يجعل مجتمع الشفافية مجتمعا تحوليا وهنا تكمن صفته الشمولية " ولذا لا بد لنا من إعادة النظر في ذواتنا وتفكيك كل ما نأخذه من ثقافة الآخر فقد أصبحنا اليوم متفوقين فقط على ما ينتجه. هذا الآخر الذي تحول مجتمعه على حد تعبير تشول هان إلى مجتمع منهك. في السابق كان التلفاز بجمعنا اليوم فرقنا الهاتف وبعثرتنا مواقع التواصل الاجتماعي التي انتشرت انتشار الوباء في ثقافتنا وأصبح كل فرد منعزل في

" هيجان النيوليبرالية وسياسة البانوبيكون "

غرفته لا يرى في الآخر إلا إزعاجا يكسر صفوته الوهمية، إنها الحرية الزائفة التي جردتنا من هويتنا وألبستنا هوية جديدة لانعرف بالضبط أين نموقع أنفسنا فيها.

5. خاتمة:

يمكننا القول في الأخير أن ما قدمه تشول هان هو وصف لمجتمع أصبح من الضروري إعادة النظر فيه وتفكيك بنيته التي سيطرت عليها الرأسمالية الجديدة، هذه الأخيرة التي غدت تشجع وتنشر الايجابي في عوض السلبي الذي ميّز المجتمعات السابقة، إن الإيجابية المفرطة التي أوقعتنا فيها مواقع التواصل الاجتماعي أوقعت الذات في مأزق الحرية الموهومة، وخلقنا عنفا يختلف في حشياته عن العنف الذي كان موجودا في المجتمعات التأديبية بل أصبح أشد خطورة لأنه بفتك بالذات ويكون ناتجا عن الرضا التام الذي تتموقع فيه الأنا ولذا أصبح القهر والحرية كما بينا سابقا متلاصقان، لقد نجح هان بأسلوبه السلس والفريد في وصف الحالة التي وصل إليها المجتمع الغربي، إنه لا يعطي الحلول ولكن يتحدث عن الأسباب، ولا يقدم علاجا لمختلف الأمراض التي تسببت فيها النيوليبرالية بل يغوص في عمق الأفكار بعيدا عن إرادة التغيير التي ميّزت الفلسفة الماركسية، لا يمكن أن نقول أنه نبو ماركسي لأن التفسير والشرح لا يدخل ضمن نطاق هذه الفلسفة، لقد نجح هان في القول أن الفلسفة هي الرؤية والحل الوحيدة الذي يجعلنا نعرف كيفية تشكل العلاقات ففي معظم ما يقدمه هان نجده ينطلق من ظاهرة يبدو أن لا علاقة لها بما هو مقبل عليه لكنه يجعلنا في آخر التحليل نقول بالفعل إنه عمق تأويلي لم ننتبه له فما علاقة مثلا سراب

الطير بحالة المجتمع وما علاقة النعومة في عالم الموضة والأزياء بالحدثة ومابعد الحدثة كلها تأويلات تحيلنا إلى القول أننا أمام فيلسوف عبقرى في تحليلاته.

7. الهوامش:

- ¹ بيونغ شول هان، من داخل السراب آفاق رقمية، ترجمة بدرالدين مصطفى، دار معنى، السعودية، 2021، ص12.
- ² بيونغ شول هان، مجتمع الشفافية، ترجمة بدرالدين مصطفى، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المغرب، 2019، ص09.
- ³ المرجع نفسه، ص26.
- ⁴ سلافوي جيچيك، العنف تأملات في وجوه الستة، ترجمة فاضل جنكر، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسة، ط1، 2017، ص07.
- ⁵ حنة أرندت، في العنف، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقى، ط2، 2015، ص17.
- ⁶ وحيد بن بوعزيز، بؤس النظرية " مساءلات في الدراسات الثقافية"، دار الميم، الجزائر، 2023، ص168.
- ⁷ بيونغ شول هان، طوبولوجيا العنف، ترجمة بدرالدين مصطفى، دار معنى، السعودية، 2021، ص10.
- ⁸ المرجع نفسه، ص16.
- ⁹ المرجع نفسه، ص20.
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص13.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص16.
- ¹² نفسه.
- ¹³ نفسه.

" هيجان النيوليبرالية وسياسة البانوبيكون "

14 نفسه.

15 نفسه.

16 نفسه.